الباب الثاني

الفصل الأول: مشاهد عامة من الخراب والدمار

الفصل الثاني: أقوام تتجرع غصص العذاب

الفصل الأول

مشاهد عامة من الخراب والدمار

يلاحظ مطالع القرآن الكريم أن هذا الكتاب المجيد كشف في سور عديدة منه عن سيرة الإنسان في درب حياته الطويل، وبيّن ما حاق به من فنون العذاب وضروب الهلاك والدمار، وذلك لتجبّره واستكباره وعناده الرسل. من ذلك ما نجده مبثوثاً في قصص الأمم الغابرة في سورة هود والأنبياء والقصص والقمر، وفي سور أخريات بغية العظة والعبرة من نحو، وإظهار قدرة الله وهيمنته على الوجود منذ بدء الخليقة إلى منتهاها من نحو آخر[1].

١

دأب القرآن الكريم في أسلوبه البياني على وصف ما حل بالأقوام السابقة لبعثة الرسول ﷺ وصفاً سريعاً، فيه إيجاز مرّة، وفيه اتساع مرّة ثانية. وتناول في وصفه أقواماً بعينها وبيّن ما حلّ بها وما أصابها من نوازل تارة، ثم تناول أقواماً آخرين فوصفهم وصفاً عاماً يومىء إلى أخذهم وإفنائهم تارة ثانية، وفي كلا النوعين يلجأ الوصف الفني الحي الذي يثير عنصري التخييل والتشخيص، ليكسبا الصور الفنية القرآنية خلوداً في الأذهان، يمدها بطاقة إيحائية حيّة، لها صفة الديمومة... فالقرآن يصف ديار الأقوام وقد درست، ثم يصف الديّارين في ساعات الكرب والعذاب والخوف.

(١) تجد في «أحسن الحديث» للدكتور البوطي ص: ١٥٩ حديثاً مبسوطاً عن قصص الأمم الغابرة في القرآن وأهدافها وطرائق تعبيرها.

يبدأ وصف القرى التي بطرت معيشتها في سورة القصص، فيشار إلى مساكن القوم التي بقيت بعدهم تبكي بناتها الذين طوتهم يد البِلى والدمار، ولفّهم الهلاك بأردية العدم، فتلك منازلهم باقية الآثار يشاهدونها في الأسفار[1].

والقرآن الكريم في وصفه الفني لا يقصد إلى الإمتاع الفني فحسب، بل يرسخ العظمة والعبرة من خلال وصفه ما حلّ بالسابقين، فهو يكشف عما أودى بالهالكين بأسلوب كنائي، إنهم بَطروا معيشتهم، ولم يحتملوا الغنى، فيحفظوا حقّ الله فيه، قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨].

وفي سورة الأنبياء يعود الوصف القرآني مرّة ثانية ليبين كيف أن كثرة كاثرة من القرى الظالمة قد قصمت، وزالت عن الوجود زوالاً، حيث يستخدم الكلمة الموحية، يفجر فيها طاقاتها الإيحائية، لتكون أكثر حياة وأدوم غنى.

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١]

والقصم هو كسر الشيء الصلب، وجُعل مستعاراً ليعبر عن إهلاك الجبارين من أهل القرى الذين أصلب ما كانوا عيداناً، وأمنع ما كانوا أركاناً[2].

والقرآن الكريم صور الكافرين لما أدركتهم مقدمة العذاب حيث راحوا يتراكضون ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٢] ويختتم القرآن وصفه لهؤلاء بالإثارة إلى همودهم وخمودهم، ويرخي عليهم الزمن ظلاله في عداد الهالكين الميتين[3].

﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٥]

على هذا النحو الفني يسير القرآن، ويطرد سيره الفني فهو جعل القوم الذين

(١) النسفي ٤/ ٦٢.
(٢) «تلخيص البيان» للشريف الرضي ص: ١٤٠.
(٣) النسفي ٣/ ٢٢٨.

أهلكهم الله بعذابه بمنزلة النبات المحصود الذي أُنيم بعد قيامه، وأُهمد بعد اشتطاطه واهتزازه، وفي الخمود استعارة لأن الخمود من صفات النار، كما أن الحصيد من صفة النبات، وأنه سبحانه شبه همود أجسادهم بعد حراكها بخمود النار بعد اشتعالها، وقد يكون المراد في الصورة تشبيههم بالنبات الذي حصد ثم أحرق فيكون ذلك أبلغ في وصفهم بالهلاك والبور وانمحاء المعالم والآثار لاجتماع صفتي الحصد والإحراق[1].

على هذا النحو يصف القرآن الكريم الأمم البائدة دون أن يربطها بالأرضية التي كانت تقطنها، بل يقصد إلى العموم في الوصف قصداً؛ لأنه أكثر دلالة على عمر البشرية المديد، ويكتفي الوصف أحياناً بالإشارة إلى هذه القرى المتناثرة على سطح المعمورة، وقد أصابها البأس وإنها لملء البصر يتملاها، فمنها ما هو قائم، ومنها ما هو محصود[2].

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠]

ويظهر العنصر الوصفي الفني في كلمتي قائم وحصيد؛ فالقائم: البناء الخالي من الأهل، والحصيد: منقوض الأبنية ملحق بالأرض يشبه الزرع المحصود، وإلى هذا المعنى يومىء قوله تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥].

والعروش: الأبنية الخالية من أهلها على ما فيها من بواقي أبنيتها، ويرى بعضهم أنه سبحانه شبّه الأحياء الباقية بالزروع الباقية، وشبّه القوم الهالكين بالزرع الذاوي وذلك أحسن تمثيل وأقوم تشبيه[3].

---

(١) هذا تعليق الشريف الرضي في «تلخيص البيان» ص: ١٤٠ وأورد السيوطي في «إتقانه» أن «الحصيد للنبات ولكن الجامع بين حصد النبات وحصيد الإنسان أمر عقلي».

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٥٩.

(٣) «تلخيص البيان» للشريف الرضي ص: ٨١.

٢

ويلتفت وصف القرآن إلى الإنسان الذي كفر وأنكر، ثم يصفه والعذاب يدور حوله، أو يحلّ قريباً منه، حيث تصيبه قارعة تذكره، أو تشدّه إليها حين تصيب غيره، ولكن الكافر ـ إن رأى العذاب مجسداً ـ يسقط قطعاً هابطة من السماء، يلج في إنكاره، ويطلق صيحة الاستخفاف: هذا سحاب مركوم، وما ذلك إلا عناد وطغيان[١]، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤].

ويلتقط القرآن صورة فنية تستمد إيحاءها من الواقع، فالبلاء أحاط بالكافرين الماكرين، وبدأ بأبنيتهم يقوضها من أركانها ـ وهي مأمنهم ـ فأتاها من القواعد، فتداعت راكعة على رؤوس بناتها، ثم شملهم البلاء بعذاب مقيم من حيث لا يحتسبون أو يتوقعون[٢].

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

وفي سورة البقرة، يعرض الوصف القرآني خلال الحديث عن بني إسرائيل ما حلّ بهم، حيث نزل عليهم عذاب من السماء، ثم وصف ذلك العذاب وصفاً عاماً غير محدد فهو رجز من السماء[٣]، ولا شك في أن الوصف القرآني يقصد هذا النوع من العموم قصداً، ليبدع للخيال الإنساني فرصة التأمل والتخيل الذي يمدّ الصور بالغنى والاتساع، ويدفق فيها حياة ويكسبها خلوداً، هاهو ذا الرجز ينزل من السماء: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩].

ويتعدى الوصف العذاب إلى الذين أهكلوا فيه فيعرض لهم عرضاً عاماً متوخياً الغاية عينها في اتساع الصورة وإغناء الخيال، فيشير إلى سبب البلاء

(١) تفسير النسفي ٥/١٠٣.
(٢) النسفي ٣/٣٧.
(٣) تفسير ابن كثير ١/٩٨.

الذي أُحدث بهم فهم ظالمون فاسقون، ولا غرو أنه بين هذا وذاك أبعاد سحيقة من السلوك الإنساني الذي مارسه بنو إسرائيل فكان دافعاً إلى البلاء والعقاب.

٣

ولا يقتصر الوصف القرآني على تصوير العذاب وآثاره المرئية بل يعمّق الوصف بتصوير الحالة النفسية التي يعيشها الكافر المترف، وقد أخذه البلاء، وأحدق به العذاب، إذ يطلق صيحات المستجير، يجأر مذعوراً ويصرخ مبهوتاً، وقد باغته العذاب ولكن لا جدوى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤ـ٦٥].

ويقود وصف المشاعر النفسية إلى وصف المظاهر الخارجية، فهاهم أولاء المترفون يتراجعون عن سماع الحق وقد استبد بهم الكبر، يتسامرون بالسوء ويفحشون في القول بغياً من عند أنفسهم[1].

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦ـ٦٧].

حين يصف القرآن البلاء الذي وقع فإنه يعمد إلى تصوير البلاء الذي سيقع، ويرسم صورة للإنسان وقد أحدق به عذاب مقيم، وألمّت به النازلات، ولينقل البيان القرآني هذا المعنى لجأ إلى إسناد الدخان إلى السماء فهي التي تأتي به، ثم ترسله إلى الأرض سحباً كثيفة تحيط بالإنسان ثم تسدّ عليه منافذ النجاة، حيث تغشاه من فوقه ومن أسفل منه[2] في وسط هذا الجو الدخاني الخانق يرتفع صوت الناس يجأرون ويستغيثون، ويدّعون أنهم مؤمنون، وهذا الصوت يضيع صداه في ضجيج البلاء، لا بل يختنق صوت الاستغاثة لأنه سبق على صاحبه القول: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٠ـ١٢].

---

(١) «الكشاف» للزمخشري ٢/ ٢٩٣.

(٢) النسفي ٤/ ٤٣١ ـ ٤٣٢.

ويختتم المشهد بوصف موحٍ يعتمد على اللفظة المعبرة، لفظة البطش والبطشة بما فيهما من ثروة تصويرية، وقدرة تعبيرية، وتوصف البطشة بأنها كبرى، كل ذلك لتكون آفاق الصورة واسعة موحية، فيها زمان وقوة وإثارة للمشاعر: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].